مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

«لطائف الإشارات» للقشيري (ت ٤٦٥هـ) في ضوء نظرية السياق القرآني: صور تطبيقية

د . سلطان عبدالله العازمي

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجلس
النشر العلمي

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

ISSN: 1029-8908

العدد ١٣٩ - السنة ٣٩

جمادى الآخرة ١٤٤٦ هـ - ديسمبر ٢٠٢٤م

البحث الثاني

«لطائف الإشارات» للقشيري (ت ٤٦٥هـ) في ضوء نظرية السياق القرآني صور تطبيقية

الدكتور / سلطان عبدالله العازمي

مدرس التفسير وعلوم القرآن في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت

للاستشهاد:

العازمي، سلطان عبدالله. (٢٠٢٤). «لطائف الإشارات» للقشيري (ت ٤٦٥هـ) في ضوء نظرية السياق القرآني: صور تطبيقية. *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية*، ٣٩ (١٣٩)، ٦٥-١٠١.

https://doi.org/10.34120/jsis.v39i139.3531

To cite:

Al-Azmi, S. A. (2024). Laṭā'if al-Isharat by Al Qushayri (d. 465 AH) in The light of the Quranic Context Theory: Applied Examples. *Journal of Sharia and Islamic Studies, 39*(139), 65-101.

https://doi.org/10.34120/jsis.v39i139.3531

Doi: https://doi.org/10.34120/jsis.v39i139.3531

«لطائف الإشارات» للقشيري (ت٤٦٥هـ) في ضوء نظرية السياق القرآني
صور تطبيقية

د. سلطان عبدالله العازمي*

تاريخ الاستلام: أكتوبر/٢٠٢٢ تاريخ الإجازة: نوفمبر/٢٠٢٢

ملخص البحث

فكرة البحث تفعيل نظرية السياق في التفسير لترجيح الأقوال المتعارضة أو ردِّ الشاذّ منها؛ وقد اتَّخذ كتاب: «لطائف الإشارات» للقشيري نموذجًا للدراسة، وذلك بالوقوف على بعض الأمثلة السياقية عنده، ومدى موافقتها للسياق بنوعيه المقالي والمقامي، وتكمن **أهمية البحث** من جهةِ موضوعِه بما تحويه لطائفه من إشارات رائقة، ولفتات نفيسة، فهو دراسة منهجية علمية عملية تكشف عن دور السياق لمعرفة مدى صحة الآراء التفسيرية عند القشيري ذي الميول الصوفية، وتتمثل **إشكالية البحث** في تطبيق نظرية السياق على «لطائف القشيري» مبيّنًا جوانب الخطأ والصواب فيها، **ويهدف البحث** إلى إبراز أهمية ضابط السياق في الكشف عن صحة منهج المفسر، وقيمته في تجلية معاني القرآن الكريم، لذا وَقَفَ عندَ مفهوم السياق وأهميته وأنواعه، وأبانَ عن مظاهرِ الإجادةِ في اللطائف وتعزيزها، وتقويم ما جانَبَ الصواب منها، وقد اتَّبعتُ فيه المنهج الاستقرائي؛ بتتبع أقوال القشيري في تفسيره، ثم تحليلها بمناقشة هذه الأقوال وشرحها وتفسيرها حسب نظرية السياق، ثم نقدها لتقويم الآراء مع بيان الراجح منها، ومن أبرز **النتائج** أنّ إشاراته تعدُّ من التفسير الإشاري المقبول المغاير للتفسير الباطني المنحرف مع ما بدا فيها من مخالفات سياقية منهجية، وقد يُعتذر له أنها خوالج نفسية عابرة، فهو إنْ فعّل السياق وسار على سجيّته العلمية دون عوائق، برزت لديه معالم ثقافته العلمية الرصينة، وإن جنَحَ إلى تغليبِ

(*) **د. سلطان عبدالله مطلق العازمي:** يحمل شهادة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة اليرموك، عام ٢٠١٩، والماجستير في التفسير وعلوم القرآن من الجامعة الأردنية، عام ٢٠١٥، والليسانس في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الكويت، عام ٢٠١٣، يعمل مدرسًا للتفسير في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، منذ ٢٠١٩، وله كتابان مطبوعان، وأربعة أبحاث عالمية محكمة.

الاهتمامات البحثية: التفسير، مناهج المفسرين، علوم القرآن، أصول التفسير.

البريد الإلكتروني: Dr.sultan.kuw@gmail.com

حقوق الطبع والنشر محفوظة - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

إملاءاته العقدية وإشاراته الصوفية، فقد يشطّ عن دلالة السياق، ويمكن القول بأنَّ إشاراته -بمنأى من مجموع كتبه- تنحو إلى اعتدال نسبي، يعود لطبيعة النشأة العلمية وأثر البيئة فيها، لذا **يوصي الباحث** بتكثيف الدراسات التطبيقية لنظرية السياق على ذوي الاتجاهات من أهل الملل والنحل.

الكلمات المفتاحية: القشيري، لطائف، إشارات، السياق.

Laṭā'if al-Isharat by Al Qushayri (d. 465 AH) in The light of the Quranic Context Theory Applied Examples

Dr. Sultan Abdullah Al-Azmi*

Submitted Date: Oct. 2022 **Accepted Date: Nov. 2022**

Abstract

This Thesis addresses placing the context theory into effect in the interpretation (Tafseer) to prevail one of the conflicting opinions over others or to exclude the abnormal ones. "Laṭā'if al-Isharat" book by Al Qushayri was used as case study by pointing out some of his contextual examples, and whether they agree with both types of context: narrative and situational. **The Thesis significance**, which contains invaluable indications, lies in being a scientific and practical methodology intended to signify the role of context to validate the interpretations of Al Qushayri, who has Ṣūfi tendencies. **The Thesis Problem** intends to apply the context theory to "Laṭā'if al-Isharat by Al Qushayri" highlighting the correct and wrong aspects therein. **The Thesis underlines** the importance of context in validating the methodology of Mufassir (interpreting scholar) and its value in interpreting and clarifying meanings of the Holy Quaran. Hence, the Thesis addresses the concept, importance and kinds of context and adapts what could be far from the truth. The Thesis has adopted the inductive **approach** through following, analyzing, explaining and interpreting Al Qushayri opinions

(*) Teacher of Interpretation (Tafsir) and Qur'anic Sciences at the Ministry of Awqaf and Islamic Affairs – Kuwait
Email: Dr.sultan.kuw@gmail.com

All Rights Reserved - Academic Publication Council - Kuwait University

in view of the context theory, and criticizes them to correct the opinions while indicating the preponderant opinion. **The most remarkable findings** include his indications (Isharat) which are considered as an acceptable indicative Tafseer differing from the delinquent mystical interpretations, despite the systematic contextual violations therein, which may be excused for being fortuitous psychological experiences. If he adopted the context and follows his scientific approach, the solid scientific culture of Al Qushayri would prevail. Conversely, if he tends to prevail over his doctrinal opinions and Sufi Isharat, he may stray too far from the significance of context. It might even be said that his Isharat, beyond his other books, shows a relative moderation that is attributable to his intellectual orgination and environment. Hence, the Researcher recommends increasing the applied studies of the context theory on the Scholars with religious tendencies and approaches.

Keywords: Al Qushayri - Laṭā'if – Isharat - Context .

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد هيأ الله لهذه الأمة مَن يُجلِّي لها معاني كتاب ربها، بدءًا من الصحابة نَقَلة هذا الدين، وانتهاء بأئمة الهدى من العلماء الربانيين على مرِّ السنين، كلٌّ منهم حسب ما هداهُ إليه فهمه، معتمدين في ذلك كله على معالم واضحة وسُنن ربانية؛ كاعتماد الحديث والأثر، ومباحث النحو واللغة، وأقوال السلف الأوَّلين، وغيرها من علوم نفيسة، قصدوا بها الوقوف على مراده سبحانه تعالى دون تحريف أو تغيير.

ويعد القشيري من أرباب المدرسة الصوفية الأشعرية فهمًا وتأويلًا، فهو يلتمس منها ما يراه من إشارات تفسيرية، ومعالم سلوكية، وتربية روحية، ولطائف علمية، وقد أدرجها في تفسيره للقرآن الكريم الموسوم بـ:«لطائف الإشارات»، وكعادة البشر تجد في لطائفه التفسيرية إشارات لطيفة رائقة، وأوابد مستحسنة، كما تجد فيها إشارات بعيدة عن دلالة السياق وغرض الكلام، بل هي تأويلات متكلفة، ألجأه إليها انتماؤه المذهبي ونشأته العلمية.

ومن هنا انبثقت فكرة هذا البحث؛ وهي تفعيل نظرية السياق؛ لنقف عند حدود الإصابة ومدى دقتها في كتابه رحمه الله، فهذه النظرية هي الطريق الأسلم لبيان صحة قول المفسر، فكلام الله تعالى وِحدة واحدة، يُفهم متناسقًا منظمًا، لا اختلاف فيه ولا اضطراب، وأكاد أزعم بأن نظرية السياق أفضل سبيل لمعرفة صحة التفسير عند أهل الأهواء والبدع؛ وذلك بما يكشفه من دخيلة الكاتب، وميوله، فهو يَشِي بطريقة تفكيره، وعمق رؤيته.

ونظرية السياق بما تحمله من معانٍ جليلة، توضح دروب الحق، وتعطي الكلمة في سياقها مفهومًا محددًا وقيمة متميزة رغم تنوع دلالاتها قبل انتظامها في سياقها هذا، وتكشف عن الهَنَات لكل قول مُتعسّف بعيد الدلالة، فكلماتنا ألفاظ صماء تكشف عن سر جمالها إذا انتظمت مع أخواتها في سياق معيَّن، فتغدو أكثر إشراقا وجمالا، فيُهتدى بنورها إلى كنه المعنى وسر جماله، وكتاب الله تعالى هو الأَولى بالوحدة الموضوعية؛ فهو منزل من لدن حكيم خبير، فترابط آيِهِ بعضها ببعض بما يوضح مقاصده ومفاهيمه بات حقيقة، لا مراء فيها.

أهمية البحث:

تكمُن بأنّها منهجية علمية تكشف عن دور السياق في الكشف عن مدى دقة القشيري في تفسير الكتاب العزيز، وهي إضافة نوعية للدراسات القرآنية، حيث لم أقف -في حدود اطلاعي- على من تناولها بالبحث والدرس.

أسباب اختياره:

لقد عايشت كتاب اللطائف دهرًا من عمري؛ أرتشف من لفتاته الإيمانية، وأتمتع ببعض أوابده، وأقيد شوارده؛ وقد استوقفني فيه ما استهجنته، فأحببتُ -ولو بعد حين- أن أقف على مدى دقة القشيري في تناوله لمعاني القرآن، ولم أجد خيرًا من دلالة السياق برهانًا على ذلك.

حدود البحث:

اقتصرت على أمثلة محدّدة تتعلّق بنوعي السياق؛ الداخلي والخارجي في كتاب اللطائف، ولا يعنى البحث بمفهوم السياق الشامل عند القشيري لقلة اعتماده على دلالة السياق؛ كون إشاراته جاءت خواطر نفسية عابرة، لم يعمد إلى التفسير قصدًا.

مشكلة البحث:

برزت في العصر الحديث ظاهرة تفسير القرآن الكريم دون رباط منهجي محدد، فحاولت هذه الدراسة الوقوف على دقة منهج القشيري بدراسة سياقية؛ وقد أجابت عن الأسئلة الآتية:

١ - من القشيري؟ وما منهجه في لطائف الإشارات؟
٢ - ما مفهوم السياق وأهميته وأنواعه؟
٣ - ما أثر الدراسة السياقية في توضيح منهجه؟
٤ - ما صحة منهج القشيري في لطائفه؟

أهداف البحث:

١ - إبراز قيمة السياق في تجلية معاني القرآن الكريم وتوضيحها.
٢ - توضيح مفهوم السياق وأهميته وأنواعه.
٣ - بيان أهمية ضابط السياق في الكشف عن صحة منهج المفسر.
٤ - بيان مظاهر الإجادة في اللطائف وتعزيزها، وتقويم ما يُجانب الصواب منها.

الدراسات السابقة:

تزخر المكتبة الإسلامية بالدراسات المتنوعة حول نظرية السياق عامة، وفي القرآن الكريم خاصة، غير أنني لم أقف على من طبق هذه النظرية على تفسير القشيري؛ وقد أفدتُ من تلك الدراسات كما هو مثبت في ثنايا هذه الدراسة.

منهجية البحث:

اتَّبعتُ المنهج الاستقرائي؛ وذلك بتتبع أقوال القشيري في تفسيره، ثم تحليلها بمناقشة هذه الأقوال وشرحها وتفسيرها حسب نظرية السياق، ثم نقدها لتقويم الآراء مع بيان الراجح منها.

خطة البحث:

انتظمت خطة البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وفيها: أهمية البحث، وأسباب اختياره، ومشكلته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهجية البحث، وخطته.

المبحث الأول: التعريف بالقشيري وكتابه لطائف الإشارات.

المطلب الأول: التعريف بالقشيري.

المطلب الثاني: التعريف بلطائف الإشارات.

المبحث الثاني: السياق القرآني، مفهومه، أهميته، أنواعه.

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني وأهميته.

المطلب الثاني: أنواع السياق.

المبحث الثالث: إشارات القشيري في ميزان السياق القرآني.

المطلب الأول: ما وافق السياق.

المطلب الثاني: ما خالف السياق

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

وأخيرًا، اللهَ أسأل أن يلهمني فيه الرشد والسداد.

المبحث الأول

التعريف بالقشيري، وكتابه لطائف الإشارات

المطلب الأول: التعريف بالقشيري[١]:

هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك، أبو القاسم القُشَيْري النيسابوري، الفقيه الشافعي، والقشيري: نسبة إلى قشير بن كعب، وهي قبيلة كبيرة، ولد سنة (٣٧٦هـ)، نشأ يتيمًا، وقرأ الأدب والعربية، وسمع الفقه من محمد بن بكر الطوسي، وأخذ الكلام وأصول الفقه عن ابن فورك، ودرس عند أبي إسحاق الإسفراييني والباقلاني، وبرز بين الأشاعرة، وسمع الحديث ببغداد والحجاز، وكان يعظ ويملي الحديث، وكان ذا قدر كبير وله شعر رقيق، وتوفي سنة (٤٦٥هـ)[٢].

حدَّث عن أبي الحسين أحمد الخفاف، وأبي بكر محمد المزكي، وأبي عبدالله الحاكم وأبي نعيم الاسفرائيني، وغيرهم، وحدث عنه أولاده أبو نصر وعبدالمنعم وأبو عبدالله الفراوي وزاهر الشحامي وأخوه وجيه وغيرهم[٣].

ومن مصنفاته: كتاب «آداب الصوفية»، و«بلغة الفاضل»، و«الرسالة القشيرية» في التصوف، و«التفسير الكبير»، و«لطائف الإشارات»، و«الجواهر»، وغيرها[٤].

وقد اتّخذ القشيري التَّصوف مذهبًا؛ أخذه عن أبي علي الدقاق، وهو أخذه عن أبي القاسم الفيروزآبادي، عن الشبلي، عن الجنيد، عن السري، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي، عن التابعين[٥].

ووصفه ابن الصلاح بقوله: «كان لسان عصره، وسيد وقته، شيخ المشايخ، وأستاذ الجماعة، ومقصود سالكي الطريقة، بندار الحقيقة، وقطب السادة، حقيقة الملاحة، جمع بين علوم الشريعة والحقيقة، وشرح أحسن الشرح أصول الطريقة»[٦].

(١) انظر: طبقات الفقهاء الشافعية (٥٦٢/٢)، سير أعلام النبلاء (٢٢٧/١٨)، الوافي بالوفيات (٦٣/١٩)، وفيات الأعيان (٢٠٥/٣).

(٢) انظر: معجم الأدباء (١٥٧٠/٤).

(٣) انظر: التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص٣٦٦).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢٩/١٨).

(٥) طبقات الشافعية الكبرى (١٥٧/٥).

(٦) طبقات الفقهاء الشافعية (٥٦٢/٢).

وقد تلقَّى علم العقيدة على المذهب الأشعري، والفروع على مذهب الإمام الشافعي[١]؛ قال عنه السبكي: «ماهر في التكلم على مذهب الأشعري»[٢]، واشتهر بالتصوف أكثر من شهرته كعَلم من أعلام الأشاعرة؛ وهذه بعض آرائه[٣]:

- وافق الأشاعرة في ثنايا كتبه المختلفة فهو: ينكر العلو، ويثبت الصفات السبع مع صفة البقاء، ويتأول صفة المحبة، والضحك؛ وغيرها.
- إنكاره على غلاة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود، وغيرها.
- رده على الفرق الضالة؛ كالقدرية، والرافضة.
- يرى وجوب تعلم علم الكلام على القادرين للرد على شبهات الخصوم.

وعليه فالقشيري شافعي المذهب، أشعري في الأصول، صوفي الهوى، وقد تضمنت كتبه على اختلاف موضوعاتها مفهوم التصوف وما يتعلّق به.

المطلب الثاني: التعريف بـ«لطائف الإشارات»:

أولا: لمحة عن لطائف الإشارات:

للقشيري كتابان في التفسير؛ فأما التفسير الأول: (التيسير في علم التفسير) فما وُجِد منه فهو مخطوط[٤]، قال عنه الصفدي: «صنّف التفسير وهو من أَجود التفاسير»[٥]؛ وأما الثاني: (إشارات القشيري)، وهو ما يُعنى به هذا البحث.

يقول القشيري في مقدمة «لطائف الإشارات» مذكرًا بنعمه سبحانه على العلماء[٦]: «لاستبصار ما ضمّنه من دقيق إشاراته، وخفيّ رموزه، بما لوّح لأسرارهم من مكنونات،

(١) انظر: وفيات الأعيان (٣/٢٠٧).

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٥٧).

(٣) انظر: مصرع التصوف (٢/٢٤٠)، والتيسير في علم التفسير (١/٥٦)، وآراء القشيري الكلامية والصوفية (ص٧٨).

(٤) انظر: معجم التاريخ (٣/١٨٥٤).

(٥) انظر: الوافي بالوفيات (١٩/٦٣).

(٦) لطائف الإشارات (١/٤١) بتصرف.

فوقفوا بما خصّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويذرون».

ثم يقول: «وكتابنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة، إما من معاني مقولهم، أو قضايا أصولهم، سلكنا فيه طريق الإقلال خشية الملال».

نستنتج من هذه المقدمة:

- أنّ اهتمامه ينصب على الإشارات واللطائف بما فتح الله عليه، وهي نفحات يسيرة، ولطائف تفسيرية، ونفحات إيمانية.
- في كلامه تصريحٌ بتعريف التفسير الإشاري[١]، ونستخلص ذلك في قوله: «فوقفوا بما خصّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم»؛ فتلك الإشارات إلهام من الله تعالى، خصّ به الأولياء حسب مراتبهم وأقدارهم؛ فهم مخبرون عن الله، وإليه يشيرون، وعنه يفصحون.
- نلمس من المقدمة النَّفس الصوفي كقوله: خفيّ رموزه، لوّح لأسرارهم من مكنونات، خصّوا به من أنوار الغيب، نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، وغيرها.
- أفصح القشيري عن مصادر تفسيره؛ وهي: الأصول التي اعتمدها أهل المعرفة (المتصوفة) وأقوالهم، ومعانيهم المستنبطة.

وقد اختلف العلماء في مشروعية التفسير الإشاري[٢]؛ ومن أجازها منهم جعل لها ضوابط منهجية[٣]؛ من تأمّلها وجدها تنبثق من مقاصد الشريعة الكلية، وعليه يمكن تقسيم تلك الإشارات إلى ثلاثة أقسام[٤]:

---

(١) وقد عرّفه الزرقاني: «هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر». مناهل العرفان (٢/٧٨).

(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (١/٣٦٨).

(٣) ومن تلك الضوابط: أن يكون هناك ارتباط وتلازم بين الإشارة معنى الآية، وألاّ تناقض سياقها العام، وأن يكون المعنى في نفسه صحيحًا. انظر: التبيان في أيمان القرآن (ص١٢٤)، والموافقات (٤/٢٣١).

(٤) انظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر (ص١٧٧).

الأوَّلُ: أن تكون صحيحة في ذاتها، بينها وبين الآية ارتباط بوجه ما؛ فتكون هذه الإشارة صحيحة في نفسها، توافق مقاصد الشريعة، ولا تناقض دلالة اللغة وسياقها العام.

الثاني: أن تكون صحيحة في ذاتها، لكنّ ارتباطها بالآية غير صحيح، فالآيَة لا تدلُّ عليه؛ ولن يكون العالم بمنأى عن الوقوع فيه.

الثالث: أن تكون الإشارة غير صحيحةً في ذاتها؛ فيكون ارتباطها بالآية خطأ قطعا؛ وهذا النوع ربما يقع فيه من خلصت نيته؛ لكنّه مرتع خصب لمَن فسدت سريرته قديمًا وحديثًا؛ فيَلوي عنق الآيات ليتلاءم مع معتقداته.

وخلاصة القول الإشارات لا تعدُّ تفسيرًا، بل هي لطائف يستخلصها كاتبها بما أفاض الله تعالى عليه من معرفة وفهم، ولمحات عابرة تختص بكاتبها، واستنتاجات ظنيّة راجحة، وأمّا حقيقة التفسير فهو بيان لمراد الله تعالى ومراد رسوله لحظة تَنزُّل القرآن الكريم، فهو رسالة للعالمين، لا خواطر نفسية، أو انفعالات فكرية، ولا هي أيضًا فيوضات ربانية خاصة كما يدعيها المتصوفة، وإلا فكيف تُنسب إلى الله تعالى، وربما داخلها الصواب والخطأ؟ فعليه، القرآن هو وحيه سبحانه، أنزله بلسان عربي مبين، فوجب إبقاء فهمه على مقتضى هذا اللسان وحسب.

ثانيًا: منهج القشيري في لطائف الإشارات:

سار القشيري على منهجية غير مطّردة في لطائفه، وهي كما يلي:

١) يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة، وأحيانًا حرفًا حرفًا، وذلك بما يتماشى مع السياق العام للسورة كما يرى محقق الكتاب[١]، أو بما يتوافق مع بعض إشاراته في تلك السورة، ولا تخلو من النزعة الصوفية غالبًا.

٢) يشرح الآية شرحًا مجملًا، يتناول فيه بعض أقوال السلف فيها، دون نسبة الأقوال إلى أصحابها بغية الاختصار، فربما استوقفته كلمة معجمية مفردة، أو سبب نزول، أو

(١) انظر مقدمة محقق: لطائف الإشارات (١/٢٦).

مليحة بلاغية، أو وقفة إعرابية[١]، دون إسهاب في مسألة عقدية، أو حكم فقهي أو مسألة أصولية إلى غير ذلك.

٣) ثم يتوقف عند الإشارة من الآيات ودلالاتها، وهي إشارات إيمانية دعوية متنوعة، وربما تكون صوفية صرفة، تُعنَى بمنهجهم، وتبيّن أصولهم، دون إسهاب ممل، وربما اكتنفها الغموض لخصوصية مفاهيمها عندهم.

وهذا المنهج يطّرد غالبًا؛ فربما ترك ذكر الإشارات في بعض الآيات، وربما اكتفى بالتفسير التحليلي لبعض الآيات كما في سورة الزلزلة وغيرها[٢]، والحق أنّ كتابه يعدّ إشارات صوفية، هي أقرب من كونها تفسيرًا خالصًا.

ثالثًا: أمثلة على إشارات القشيري:

للقشيري إشارات كثيرة رائقة تتوافق مع السياق، ولا تتعارض مع مقاصد القرآن عامة، وسنضرب على ذلك مثالين:

المثال الأول: قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

يقول القشيري شارحًا: «أي: تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه»، ثم يُعلِّق فيقول: «وعلى معنى الإشارة: إن النصرة من قبل الله ومنصور الحقّ لا تنكسر سنانه، ولا تطيش سهامه»[٣].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم: ١]، يقول القشيري: «وظاهر هذا الخطاب عتاب على أنّه مراعاة لقلب امرأته حرّم على نفسه ما أحلّ الله له. والإشارة فيه: وجوب تقديم حقّ الله سبحانه على كل شيء في كل وقت»[٤]

والمتأمِّل لهذه الإشارات يجدها متوافقة مع سياق الآيات الإجمالي، لا تعارض بينها، ولا تُناقض أصلًا شرعيًّا، فهي من قبيل التذييل الإيماني الذي يستقي العظات والعبر، ويبث في القلب الثبات، ويقوي مشاعر الإيمان، ويحث على مكارم الإخلاق.

(١) ومن أمثلة ذلك على الترتيب: (٣/٣٨١)، (٣/٦٨٧)، (٣/٥٣١)، (٣/٧٨٢).

(٢) انظر: التيسير في علم التفسير (١/٨٠).

(٣) اللطائف (٢/٣٤٦).

(٤) اللطائف (٣/٦٠٥).

المبحث الثاني
السياق القرآني، مفهومه، أهميته، أنواعه

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني وأهميته:

أولًا: السياق لغة:

ساقَ يَسوق، سُقْ، سَوْقًا وسِياقًا وسِوَاقةً وسِياقةً، فهو سائِق، والمفعول مَسُوق، ومن معانيها في اللغة[1]:

- القيادة والدفع والحمل: يُقال: ساق الإبل، أو ساقه إلى الهلاك، أو ساق الصداق والمهر، أو ساق نفسه سياقا: نزع بها عند الموت.
- السرد والإرسال: يقال: ساق الحديث أو القصة.
- الانقياد والمجاراة: انساق وراء شهواته، وتساوقت الإبل: تتابعت.
- التسويق: يقال: سوّق البضاعة: أوجد من يشتريها، وسوّق الشجر: أصبح له ساقًا.

والمتأمل في كتب المعاجم يجد هذه المادة تدور على معنى السَّوق، سواء أماديًّا كان أم مجازيًا؛ فالمادي: كسوق الحيوانات، والسُّوق الذي تُساق له البضائع؛ والسِّياق: المهر والنَّزع. والمجازي: كسوق القصة والحديث، ويدخل فيها أيضًا المساوقة وهي المتابعة والانقياد والمجاراة، لذلك يقول ابن فارس: «السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدُو الشيء»[2]؛ وحدو الشيء: ما يتبع بعضه بعضًا.

ثانيًا: السياق القرآني اصطلاحًا:

استخدم علماؤنا القدماء هذا اللفظ على المعنى اللغوي المتعلّق به، أو بمعنى الهدف الرئيس من الجملة اتِّكاءً على سبق في درج الكلام، أو بمعنى الظرف الذي قيل فيه النص[3]، لذلك نجد هذا المصطلح دارجًا عند مفسري القرآن، وأصول الفقه، وعلوم العربية، وغيرهم، ولم يُحرَّر كمصطلح يشير إلى دلالة محددة.

---

(١) تاج العروس (٢٥/ ٤٧٤) مادة(سوق)، معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٧٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١١٧) مادة(سوق).

(٣) بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل (ص٣٤٥)، وانظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (٩/ ٣٨٩).

وقد اكتسبت هذه اللفظة مع مرور الوقت دلالات خاصة عميقة؛ ممّا خوّلها أن تغدو مصطلحًا مهمًا في دراسات الأصول والتفسير واللغة، ولكننا سنكتفي بتعريف أهل التفسير، لتعلُّق هذه الدراسة به.

ومن أهم التعريفات المهمة للسياق القرآني التي وقفتُ عليها، تعريف الدكتور المثنى عبدالفتاح وهو: «تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال»[١].

فالسياق هو المعنى المقصود المستخلص من انتظام الألفاظ بعضها بعض؛ لتؤدي معنى معيَّنًا، أراده ربنا سبحانه وتعالى، فهو يشمل ما يسبق الآية وما يليها مباشرة -أي: سباق الآية ولحاقها- ليتمكن المتلقي من الوصول إلى المعنى المراد دون شطط أو إغراب.

وعلى هذا القول فإنّ التعريف الاصطلاحي يلتقي مع المعنى اللغوي؛ وإن كان الاصطلاحي قد اكتسب دلالات أكثر عمقًا لطبيعة تطور العلوم واتّساع مفاهيمها.

ثالثًا: أهمية السياق القرآني:

للسياق أهمية كبرى، فقيمة الكلمة فيه تكتسبها من موقعها الذي هي فيه، فالألفاظ «لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها»[٢]، وعليه تتعين أهمية السياق بما يلي:

- السياق يُعيّن أحد المعاني المشتركة للَّفظ الواحد، فهو يخلع على اللفظ المعنى المناسب بما يُضفيه التركيب من ارتباط وثيق بين أجزاء الجملة[٣].
- السياق هو من أوجه الترجيح التي اتّكأ عليها أهل التفسير، لذا يقول ابن جزي الكلبي: «أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ويدل عليه ما قبله أو ما بعده»[٤].
- السياق يرفع التناقض عن مفهوم الجملة؛ فكلام «العرب يصحح بعضه بعضا،

(١) نظرية السياق القرآني (ص١٧) وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز (١/٤٦).

(٣) انظر: دراسات في فقه اللغة (ص٣٠٨).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (١/١٩).

ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين؛ لأنها يتقدمها، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد»[١].

- مراعاة السياق أمر واجب؛ ولا يُنصرف عنه إلا بدليل: يقول الطبري: «فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حُجَّة. فأما الدَّعاوى، فلا تتعذر على أحد»[٢].
- دلالة السياق تقيك الزلل والخطأ، يقول ابن القيم: «السياق يرشدُ إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالَّة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته»[٣].
- قد يكون للسياق سمة تعبيرية خاصة؛ تتميز به آيات معينة أو للسورة جوُّها الخاص وسماتها المميزة، فيقتضي ذلك ألفاظًا معينة تتواءم مع تلك السمة[٤].

وخلاصة القول؛ للسياق دلالةٌ كُبرى في بيان معالم الظواهر اللغوية وتفسيرها، فهو يكشف عن المعاني الرئيسة والفرعية، فيُعيِّن اللفظ، ويكشف علاقات الكلم، ويحدد مقصد المتكلِّم، يقول الشاطبي: «فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلّف، فإن فرّق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصحّ الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض»[٥].

---

(١) الأضداد (ص٢).

(٢) جامع البيان (٩/٣٨٩).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٣١٤).

(٤) ومثاله: قوله تعالى في سورة طه [١١]: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١﴾، وفي سورة النمل [٨]: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨﴾، فعبّر بلفظ (أتى) في طه، و(جاء) في النمل؛ لأن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر من النمل، وألفاظ (المجيء) في النمل أكثر منها في طه، فناسب وضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه. انظر: التعبير القرآني (ص٢٨١) وما بعدها.

(٥) الموافقات (٤/٢٦٦).

المطلب الثاني: أنواع السياق:

أولًا: أنواع السياق:

السياق القرآني يتمثل في أربع دوائر كما يراها بعض الدارسين[١]، وهي دوائر تتعاضد مع بعضها لتبيِّن للخلق مراد الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز البياني والتشريعي، وسنعرض هذه الأنواع فيما يلي:

النوع الأول: سياق الآية:

ويمكن تفعيله عند الاختلاف في مفهوم اللفظ الذي يحتمل معاني عدّة، وينقسم حسب الدراسات اللغوية الحديثة إلى قسمين رئيسيين[٢]:

القسم الأول: السياق الداخلي أو المقالي (اللغوي)؛ هو البيئة اللغوية المحيطة باللفظ المراد تحليله؛ فهو محدود بحدود النص، ويقصد به العناصر المقالية داخل النص؛ كالصوتية أو الصرفية أو اللغوية أو المعجمية أو النحوية[٣]. وهو المتبادر للذهن عند الإطلاق، وقَصَده سلفنا الصالح بأقوالهم الواردة عنهم، وقد اكتسب دلالات أعمق في الدراسات المعاصرة.

القسم الثاني: السياق الخارجي (المقامي)؛ وهو متعلق بالعناصر غير اللغوية المصاحبة للنص؛ وهي تتناول في الدراسات الحديثة: عناصر تاريخية أو اجتماعية أو ثقافية أو زمانية أو مكانية أو طبيعة الشخوص (كالمخاطِب والمخاطَب) وغيرها[٤]، وهي سياقات من خارج النص تُؤثّر فيه، وتُكسبه دلالة إضافية معتبرة؛ ولكنّ هذا النوع لا يُقبل بإطلاق في كتاب الله تعالى إلا مقيّدًا بما يتناسب وروح الشريعة الإسلامية؛ فهو محصور عندنا بأسباب النزول، والحديث النبوي، وقول الصحابي، والمكي والمدني، وغيرها ممّا

(١) انظر: السياق وأثره في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في القرآن الكريم (ص١٩٩).

(٢) انظر: بلاغة السياق (ص٣٤٨) وما بعدها، السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة (ص٢٥).

(٣) يدخل فيها ما يُعرف بالسياق النحوي والسياق المعجمي، انظر: دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير (١/ ٩٠).

(٤) وقد أشار إلى ذلك الشاطبي في الموافقات (٤/ ٢٦٦).

قرّره المفسرون، لذلك يقول ابن تيمية: «ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمُسبِّب»[١].

أمّا التوسع بإسقاطات الدراسات الغربية الحديثة في دراسة النصوص فهي زندقة، تدخل في الانحرافات التفسيرية التي يقع بها من لازمته شبهة الإلحاد في دينه ومنهجه.

النوع الثاني: سياق النص أو المقطع أو الآيات:

ويظهر بوضوح في الآيات المترابطة دلالةً كالقصص القرآني، فيتحدّد المراد بترجيح دلالة السياق، يقول أبو بكر البقاعي: «في كل آية معنى تنتظم به بما قبلها، ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلاً في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخَلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»[٢].

النوع الثالث: سياق السورة:

فمعرفة مقصد السورة القرآنية ومحورها الرئيس معين على الوقوف على دلالاتها الكلية، وترابط أجزائها، فموضوعات السورة مهما تعددت تدور حول محور واحد من أولها إلى آخرها، يقول محمد دراز عن السورة وترابطها: «هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها»[٣].

النوع الرابع: سياق القرآن:

ويشمل سياق المقصد[٤]؛ وهو غرض المتكلم من الكلام، فقد رُتّب القرآن الكريم ترتيبًا جديدًا مغايرًا لترتيب نزوله بعد أَنْ أدّى الرسول الكريم رسالة ربه، وحكمة هذا الترتيب السماوي أن جعل كتاب الله جميعه كأنه آية واحدة هي شريعة الله، ودستور المسلمين[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٣٤ و٢٣٥).

(٣) النبأ العظيم (ص١٧٦).

(٤) انظر: بلاغة السياق (ص٣٥٧) وما بعدها.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٦٤٣).

وهذه المقاصد القرآنية العليا[1] جاءت لرعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة، فكل تفسير بالرأي يخالفها، فهو مردود على صاحبه كائنًا مَن كان.

نخلص إلى أنّ هذه الأنواع الأربعة تكشف عن منهجية دقيقة متكاملة لدراسة القرآن الكريم وتفسيره، فندرس الكلمة في سياق الجملة، والجملة في سياق مقطعها الرئيس، والمقطع في سياق السورة بأكملها، والسورة من خلال موقعها في المصحف، وبذلك نقف على وجه إعجازه، وحسن نظمه، وترابط أجزائه، وحكمة تشريعاته، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]؛ وفي ذلك لَجْم لمَن تتبّع ما تشابه منه من ذوي الأوهام المبتدعة والنوايا الخبيثة التي ما فتئت تحرف كلام الله تعالى بحجة مقتضيات العصر الحديث أو مناهج البحث العلمي.

(١) وهي ثمانية مقاصد كما أجملها الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير (١/٣٩) وما بعدها.

المبحث الثالث

إشارات القشيري في ميزان السياق القرآني

وقد فعّل السياق في تفسير آيات القرآن؛ فمنها ما وافق السياق؛ ومنها ما خالفه، وسنقف على القسمين لنجلي أثر السياق في إشاراته في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: ما وافق السياق:

وفي هذا النوع من الإشارات المقبولة شرعًا؛ يقول الشاطبي: «وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن، إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلَّفين ... والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه؛ فإنه كله جار على ما تقتضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية»[(١)].

ومن دلالات السياق التي راعاها القشيري ما يلي:

١) دلالة النقل (أسباب النزول):

- يقول تعالى في شأن معركة بدر: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال: ١٩]، ذهب المفسرون إلى ثلاثة أقوال في مسألة الاستفتاح[(٢)]:

الأول: هو خطاب للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا: اللهم أقطعنا للرحم، وأظلمنا لصاحبه، فانصره عليه. قاله الحسن ومجاهد وغيرهما.

الثاني: هو خطاب للمؤمنين، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

الثالث: أن يكون ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ خطابا للمؤمنين، وما بعده للكفار؛ أي: ﴿ وَإِن تَعُودُوا۟ ﴾إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر.

ونجد القشيري يرجّح دلالة السياق الخارجي (سبب النزول) بقوله: والصحيح أنه

(١) انظر: الموافقات (٤/٢٥٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٨٦).

خطاب للكفار[١]؛ لأنّ المشركين قالوا «يوم بدر: اللهم انصر أحبّ الفئتين إليك، فاستجاب دعاءهم ونصر أحبّ الفئتين إليه، وهم المسلمون، فسألوا بألسنتهم هلاك أنفسهم، ...»[٢].

وقصة استفتاح المشركين يوم بدر تناقلتها كتب السيرة وأسباب النزول[٣]؛ وهذا يدل على اعتماد القشيري على أسباب النزول في ترجيح المعاني.

٢) دلالة اللغة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، يُعرب علماء النحو الاسم الموصول (مَن) على جهة: النصب والرفع[٤]، فيكون المعنى على النصب: الله تعالى كافيك وهو الكافي لمن اتّبعك من المؤمنين، وعلى دلالة الرفع: كافيك الله، وكافيك أيضًا المؤمنون، وقد صوّب القشيري النصب لدلالة معنوية مهمة؛ حيث يقول: «وقد علم أن استقلال الرسول ﷺ كان بالله لا بمن سوى الله، وكلّ من هو سوى الله فمحتاج إلى نصرة الله، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرة الله»[٥].

لقد اتّكأ رحمه الله على دلالة معنوية عقدية في الترجيح؛ لكنّ مستندها المعنى النحوي، وهذا غالب ما وقفتُ عليه[٦]؛ وسببه أنّه لم يجنح إلى التفسير، بل هي إشارات يفيد منها الصوفي إلى ربه دون إيغال في علوم العربية إلا ما يبلغ به البُلغة.

أما في اللغة ودلالاتها فتجده رحمه مستقرئًا لمّاحًا؛ يستقرئ الآي، ويفرق بين دلالاتها بإعطاء الدليل، ومن ذلك تفريقه بين (التمني) و(السؤال) من وجوه:

«كون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك، فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره، والآخر أنّ السائل لا يرى استحقاق نفسه، فيحمله صدق الإرادة على التملّق والتضرع، والمتمنى يخلو عن هذه الجملة.

(١) نقله القرطبي عن القشيري دون تحديد، فللقشيري (الأب) وولده أبو نصر القشيري (الابن) كتابا تفسير، ولم أجده في اللطائف بهذا اللفظ. انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/٣٨٧).

(٢) اللطائف (١/٦١٢).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/١٠٢)، والواحدي في أسباب النزول (ص٢٣٥).

(٤) والجر أيضًا: ولم ينقله القشيري. انظر: تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه (١٠/٨٣).

(٥) اللطائف (١/٦٣٧).

(٦) انظر على سبيل المثال: اللطائف (٣/١٢٠)، (٣/٦٢١)، (٣/٦٢٤) (٣/٧٧٧).

والآخر أنّ الله نهى عن تمني ما فضّل الله به غيرك؛ إذ معناه: أن يسلب صاحبك ما أعطاه ويعطيك إياه، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك.

ويقال: لا تتمنّ العطاء، وسَل الله أن يعطيك من فضله، الرضا بفقد العطاء، وذلك أتمّ من العطاء، فإنّ التّحرّر من رقّ الأشياء أتمّ من تملّكها»[(١)].

وأما اهتمامه باللغة فيَكمن في دلالاتها الواسعة ومرونتها الحيوية بما يتيح له بيان ظلال الآية وجمالها، وهذا معين على تقييد خواطره النفسية بما يُنشده من سموّ خلّاق، ولكنّ هذه الدلالات تأتي في لطائفه عفو الخاطر، لا كلفة فيها ولا إقحام.

٣) دلالة الآثار وأقوال السلف:

- يقول تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [ص: ٥٧]، «حَمِيمٌ: هو الماء الحار، وغَسَّاقٌ: هو عصارة أهل النار، ويقال: هو زمهرير جهنم»[(٢)]. وهذه أقوال السلف في بيان المعنى[(٣)]، وقد اعتاد القشيري على الاحتجاج بها لتوضيح المعنى، وإن لم ينسبها لأصحابها، وهو تفعيل للسياق المقامي.

- قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ﴾ [الزمر: ٦]، يقول القشيري: «فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظلمة البطن، وظلمة الرّحم، وظلمة المشيمة؛ ذكّرهم نسبتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم»[(٤)]؛ وقد ذكر هذا القول «ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك»[(٥)].

ونلحظ مما سبق أن القشيري يعتمد على دلالة السياق الخارجي (المقامي) في التفسير، فهو يعتمد دلالة أقوال السلف في فهم الآيات، وإن لم ينسب الأقوال إلى أصحابها بغية الاختصار كما ذكر في مقدمة لطائفه.

(١) اللطائف (١/٣٢٩)، ومن أمثلتها أيضًا: (١/٢٩٧)، (٢/٣٢٧)، (٢/٥٥٣)،
(٢) اللطائف (٣/٢٦٠).
(٣) انظر: تفسير الماتريدي (٨/٦٤٠).
(٤) اللطائف (٣/٢٦٩).
(٥) اللطائف (٣/٢٦٩).

٤) دلالة العقل والحس:

- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، يقول القشيري: «أحلّه محل الأكابر والسّادة، فإن السلام من شأن الجائي إلا في صفة الأكابر فإن الجائي أو الآتي يسكت لهيبة المأتي حتى يبتدئ ذلك المقصود بالسؤال فعند ذلك يجيب الآتي»[(١)]، ونجد القشيري يعلل بعض الألفاظ أو المواقف أو الأساليب اللغوية اعتمادًا على دلالة العقل السليم، بما لا يتناقض مع مقاصد الشرع؛ وهي مكنة ترتكز في نفس صاحبها بالدربة القائمة على رسوخ قواعد العلم عند ذوي الألباب المتوقدة.

- قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧]، يُعلق القشيري على هذه الآية بقوله: «الخبيث: ما لا يصلح لله، والطيب: ما يصلح لله.

الخبيث: ما حَكم الشرع بقبحه وفساده، والطيب: ما شهد العلم بحُسنه وصلاحه.

ويقال: الخبيث الكافر، والطيّب المؤمن.

الخبيث: ما شغل صاحبه عن الله، والطيّب: ما أوصل صاحبه إلى الله.

الخبيث: ما يأخذه المرء وينفقه لحظّ نَفْسه، والطيب: ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيث: عمل الكافر يصوّر له ويعذّب بإلقائه عليه، والطيّب: عمل المؤمن يصور له في صورة جميلة فيحمل المؤمن عليه»[(٢)].

وهذا التقابل في شرح المعاني والتوسع في مفهومها الدلالي ممّا أتقنه القشيري أيّما إتقان في مواضع عدة من لطائفه، وهذا الأسلوب المعتمد على دلالات سياقية رائقة، يستخلصها صاحبها عن طريق الملاحظة الدقيقة لسياقات خارجية متعددة؛ تُثري النص وتُغنيه، فلا هي تناقض أصلًا شرعيًّا، ولا تأباها دلالة النص، وهذا تفسير بالرأي المحمود، يرتكز على التنوع المفاهيمي بما يُغني مفرداتها دون تضادٍّ فيها ولا تناقض.

---

(١) اللطائف (١/٤٧٧).

(٢) اللطائف (١/٦٢٤).

وخلاصة القول؛ نجد أنّ القشيري معتدل في كثير من لطائفه في تفسيره إن ترك نفسه على سجيتها دون إملاءات فكرية خارجية، كيف لا، وهو المتفنن في علوم الشريعة كلها، لذا فهو يعمد إلى التفسير الإشاري المقبول بما لا يتعارض وأقوال السلف، كما أنه يُفعّل بشكل عام دلالة السياق بنوعيه الداخلي والخارجي مغايرًا غلاة المتصوفة الذين شطحوا في التفسير وأغربوا فيه[١].

المطلب الثاني: ما خالف السياق:

وللقشيري مواضع أخرى خالف فيها دلالة السياق، وقد غلبت عليه أمارات تأثره بالمذهب الذي ينتمي إليه، وسنقف على نماذج من تلك المخالفات فيما يلي:

الوقفة الأولى: البسملة:

انتهج القشيري في لطائفه أسلوبًا واحدًا من أول كتابه إلى آخره، فهو يفسر البسملة؛ فيفسر بسم، والله، والرحمن، والرحيم، فاللبسمة عنده دلالات خاصة في سورة النساء، تغاير دلالاتها في سورة القارعة، وهكذا، يقول رحمه الله: «فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعني: (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل سورة، وثبت أنها منها، أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية، كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة»[٢]؛ فهو يرى بأنّها تتكرر بلفظها بداية كل سورة، فيفسرها في كل سورة بطريقة مغايرة عن السورة التي سبقتها بما يتلاءم مع الجو العام للسورة[٣]، أو بما يتلاءم مع ما ذكره في إشاراته في شرح السورة وتوضيح معالمها.

وهذه الطريقة ابتكرها القشيري، وقد تابعه عليها البقاعي في «نظم الدرر»، حيث يقول: «اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه؛ عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ... ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها»[٤]؛

(١) وقد درج بعضهم على تغليف شطحاتهم بالغموض، فللقرآن ظاهر وباطن، فهو أشبه بالتفسير الباطني، فضلا عما فيه من إشارات تدل على الحلول. انظر: تفسير ابن عربي للقرآن (ص٢٩).

(٢) اللطائف (١/ ٤٤).

(٣) قد تجد علاقة ما بين البسملة والجو العام للسورة، انظر: اللطائف: بداية سورة الجن (٣/ ٦٣٧).

(٤) نظم الدرر (١/ ١٩).

ومن هنا نرى أنّ البقاعي أكثر اهتمامًا بالوحدة الموضوعية للسورة من القشيري، وما جاءت فكرة كتابه إلا لتحقيق هذا الهدف، وقد أومأ إلى ذلك في مقدمته، وهو ما لم يفعله القشيري، بينما ركّز القشيري على التفسير الإشاري في مقدمته، ولم يلتفت للوحدة الموضوعية، لذا أرجح أنّ شرح البسملة عند القشيري لم يُقصد ربطها بالمعنى الإجمالي للسورة، حيث إنّنا لا نجد ترابطًا وثيقًا في مواضع عدة بين البسملة كما يشرحها القشيري والموضوع العام للسورة؛ ومن أمثلة ذلك:

- سورة الضحى: «بِسْمِ اللَّهِ: اسم لا يشبهه كفو في ذاته وصفاته، ولا يستفزّه لهو في إثبات مصنوعاته، ولا يعتريه سهو في علمه وحكمته، ولا يعترضه لغو في قوله وكلمته.

  فهو حكيم لا يلهو، وعليم لا يسهو، وحليم يثبت ويمحو، فالصدق قوله، والحقّ حكمه، والخلق خلقه، والملك ملكه»[١].

- سورة القدر؛ «بِسْمِ اللَّهِ: كلمة تحضر قلوب العلماء لتأمّل الشواهد، وتسكر قلوب العارفين إذا وردوا المشاهد ... فهؤلاء أحضرهم فبصّرهم، وعلى استدلالهم نصرهم. وهؤلاء بشراب محابّه أسكرهم، وفي شهود جلاله حيّرهم»[٢].

- سورة الهمزة؛ «بِسْمِ اللَّهِ: اسم من لا غرض له في أفعاله، اسم من لا عوض عنه في جلاله وجماله، اسم من لا يصبر العبد عنه مختارا، اسم من لا يجد الفقير من دونه قرارا، اسم من لا يجد أحد من حكمه فرارا»[٣].

ونلحظ ممّا سبق أنّ شرح البسملة يدل على الموضوع العام للسورة عند القشيري[٤]؛ وهذا ليس على إطلاقه، وخاصة أنّ السور الكبرى متعددة الموضوعات، فقد يجد المتأمل صلة من نوع ما، لكنّ السور القصيرة وغيرها تدل على أنّ مراد القشيري من هذه الطريقة

(١) اللطائف (٣/٧٣٩).

(٢) اللطائف (٣/٧٥٠).

(٣) اللطائف (٣/٧٦٦).

(٤) يقول إبراهيم البسيوني محقق اللطائف (١/٢٦): «ويزداد إعجابنا بالقشيري كلّما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلّها».

-والله أعلم- هو استجلاب البركة، والاستفتاح بما هو خير، ولا خير أعظم من حمد الله سبحانه، كما أنه وجد فيها متنفسًا ليبث فيها لواعج نفسه من تعظيم لله وبثٍّ لمعانٍ إيمانية خاصة وإشارات صوفية خالصة، تعين السالك على المسير.

ولو تأملنا قوله في البسملة بداية سورة هود نجد خلاصة ما ذكرناه آنفًا من أنها للبركة لا غير؛ يقول رحمه الله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، هذه كلمة استولت على عقول قوم فبصّرتها، وعلى قلوب آخرين فجرَّدتها، فالتي بصّرتها فبنور برهانه، والتي جرّدتها فبقهر سلطانه، فعالم سلك سبيل بحثه واستدلاله فسكن لمّا طلعت نجوم عقله تحت ظلال إقباله، وعارف تعرّض إلى وصاله فطاح لمّا لاحت لمعة ممن تقدّس بالإعلام باستحقاق جلاله»[1]، والله أعلم.

ومن جهة أخرى نجد التكلف أحيانًا في شرح البسملة؛ وذلك لما انتهجه رحمه الله من إبراز لمعاني التصوف؛ ومن ذلك قوله في تفسير كلمة: (بسم)؛ فهي عند قوم بمعنى: «(الباء) بره بأوليائه، ومن (السين) سره مع أصفيائه، ومن (الميم) منته على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع بسم الله تذكروا (بالباء) براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، و(بالسين) سلامته سبحانه عن كل عيب، و(بالميم) مجده سبحانه بعز وصفه، وآخرون يذكرون عند (الباء) بهاءه، وعند (السين) سناءه، وعند (الميم) ملكه»[2].

وهذا الربط بهذه الطريقة، يعجز المتأمل فيها أن يجد لها محملا مقبولًا، يرتضيه المنطق السليم، فضلا عما فيه من تكلف واضح، فهو لا يتلاءم وسياق السورة، ولا ورد عن السلف الصالح من أصحاب القرون الثلاثة الأولى، ولا هو معهود في كلام العرب.

الوقفة الثانية: مصطلحات الصوفية:

يُقحم القشيري مصطلحات الصوفية ومفاهيمها إقحامًا في تفسير الآيات القرآنية، وهذا النوع كثير في لطائفه، وسنضرب على ذلك مثالين:

(١) اللطائف (٢/ ١٢٠).

(٢) اللطائف (١/ ٢٦).

الأول: ذكر مصطلحات كالأبدال والأولياء والأوتاد وغيرها، وذلك في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ [النمل: ٦١]: «﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾: من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة؛ ويقال: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾: اليقين والتوكل. ويقال الرواسي في الأرض: الأبدال والأولياء والأوتاد، بهم يديم إمساك الأرض، وببركاتهم يدفع عن أهلها البلاء»[(١)].

وكذلك يعلق القشيري أيضًا على قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥]: «الرواسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخَلق، بهم يرحمهم، وبهم يغيثهم... ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب»[(٢)].

والأبدال والأولياء والأوتاد هي مراتب الأولياء عند الصوفية؛ ومفهومها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يسمونهم: (النجباء)، فينتقى منهم سبعون، هم: (النقباء)، ومنهم أربعون، هم: (الأبدال)، ومنهم سبعة، هم: (الأقطاب)، ومنهم أربعة، هم: (الأوتاد)، ومنهم واحد، هو: (الغوث)، وأنه مقيم بمكة، وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم ونصرهم، فزعوا إلى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وأولئك يفزعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد. وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد والأسماء والمراتب»[(٣)].

ثم يعلق ابن تيمية بقوله: «وهذا كله باطل، لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم، ومعلوم أن سيدنا رسول رب العالمين وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا رضي الله عنهم كانوا خير الخلق في زمنهم، وكانوا بالمدينة، ولم يكونوا بمكة».

وعليه نجد عند القشيري هذا التأثر الواضح بالاتجاه الصوفي مع إسقاط مفهومه على تفسير القرآن، وهؤلاء مَن قصدهم ابن تيمية بقوله: «قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل

(١) اللطائف (٣/ ٤٤، ١٢٩).

(٢) اللطائف (٢/ ٢٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٩٧).

ألفاظ القرآن عليها ... راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان»[1]، وفي هذا تشويه لرسالة الإسلام الخالصة لكل البشر؛ فضلا عن خطئهم في الدليل والمدلول.

المثال الثاني: شرح الآية برموز صوفية؛ مما يشوّه صفاء التنزيل بغموض، ظاهره شرك بيِّن أو باطل محرّم؛ ومثاله شرحه لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[الزمر: ٢٢].

يقول القشيري مفسرًا قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾؛ «والنور الذي من قِبله سبحانه نور اللّوائح بنجوم العلم، ثم نور اللوامع ببيان الفهم، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المكاشفة بتجلي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعند ذلك فلا وجد، ولا فقد، ولا قرب، ولا بُعد، ... كلّا بل هو الله الواحد القهار»[2].

فالقشيري يشرح منازل النور التي يتدرج فيها الصوفي: نور اللّوائح، نور اللوامع، نور المحاضرة، نور المكاشفة، نور المشاهدة بظهور الذات، وهذه المراتب لا دليل عليها، وكأنّ الصوفي نبيّ مرسل، يتدرج في منازل النبوة، حتى يصل إلى نور المشاهدة بظهور الذات العلية لله سبحانه، فإن قيل: لم يقصد ذلك، بدأنا نتأول تأويلات بعيدة حتى نقيم كلامه على الجادة، وهذا بحد ذاته يدل على مجانبة هذا التفسير للصواب، وأين هذا من وضوح قوله تعالى وإشراقه: ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾؟ فالآية لا تحتاج إلى شرح، فكيف بمن يزيدها غموضًا؟

ولذا قيل في التفسير الإشاري: «إذا أوغل في الإشارات الخفية صار ضربًا من التجهيل، ولكنه إذا كان استنباطًا حسنًا يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض، فإنه يكون مقبولًا»[3].

نلحظ أنّ إقحام مصطلحات الصوفية في التفسير لا يناقض سياق الآية أو المقطع

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٥٥).

(٢) اللطائف (٣/٢٧٧).

(٣) مباحث في علوم القرآن (ص٣٦٨).

فحسب، بل هو مناقض لسياق القرآن كله، فللقرآن مقاصد عُليا، وفردية النظرة وضيقها لا يحقق تلك المقاصد؛ بل هو مرتع لتغليب آراء الفرق الضالة.

الوقفة الثالثة: تقريريات الأشاعرة:

للنشأة الأشعريه أثرها البيّن عليه رحمه الله، ومن أمثلتها:

- نفي المكان عن الله سبحانه في مواضع عدة؛ منها قوله في بسملة سورة التكاثر: «بِسْمِ اللَّهِ: اسم عزيز تقدّس في آزاله عن كل مكان، ولم يحتج في آباده إلى زمان أو إلى مكان لا يقطعه حدّ؛ فأنّى يجوز في وصفه المكان؟ ولا يقطعه عدّ؛ فأنّى تجوز في وصفه الزيادة والنقصان؟»[(١)].

ونفي المكان عن الله سبحانه وتعالى مطلقًا مخالف لصريح القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [المُلك: ١٦].

وهذا من آثار النشأة الأشعرية التي تلقاها الشيخ، وهو لا يتناسب مع سياق الآيات القرآنية في التنزيل كله؛ فلو جمعنا الآيات في القرآن كله على اختلاف موضوعاتها[(٢)]، لوجدناها تفصح بأن الله جلّت قدرته في السماء مستو على عرشه، لذلك نجد القشيري لم يخالف نظرية السياق في الآية الواحدة فحسب، بل خالف سياق القرآن كله.

- إثبات الأسماء والصفات على طريقة الأشاعرة وإن ناقض السياق بشكل صريح؛ ومنها: قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾[الفجر: ٢٢]، يقول القشيري: «﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: الملائكة بأمره»[(٣)]؛ أوّل القشيري ربك بالملائكة، مع أنّ الملائكة معطوفون على لفظ الجلالة في الآية، وهذا يناقض ما سبق من لفظ وهو ما يُعرف بالسباق، وتنص القاعدة القرآنية: «إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به

(١) اللطائف (٣/٧٦٢)؛ وكذلك: (١/٧٤)، (٢/٢٧)، (٣/٦٩).

(٢) جمع أسامة القصاص آيات علو الله تعالى على عرشه فوق سماواته. انظرها في: إثبات علو الله تعالى على خلقه (١/٧٣).

(٣) اللطائف (٣/٧٢٧).

عنهما، إلا بدليل يجب التسليم له»[١]، وهو يدل على تغليب المعتقد على صريح سياق الآية ودلالاتها النحوية؛ وقد بانت هذه المخالفة عنده في كثير من الآيات التي تعدّ مدارًا للحوار بين الأشاعرة ومخالفيهم[٢].

- وتجده أحيانًا يضطرب في إثبات الصفة، ففي قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: ١٥]، نجد اضطراب القشيري واضحًا في تفسير العرش؛ فقال: «ذو الملك الرفيع، ويقال: العرش الذي هو قبلة الدعاء، خلقه أرفع المخلوقات وأعظمها جثة»[٣]؛ فقد ابتدأ بالتأويل، بأنه المُلك أو قبلة الدعاء، ثم أثبته بأنه من مخلوقات الله تعالى على طريقة السلف، يقول الطبري في تفسيرها: «ذو السرير المحيط بما دونه»[٤].

ثم يُعلل هذا الاضطراب في موضع آخر حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: ٣]: «أي توحّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم فى ألوان مشاهدهم.

فأخبر الحقّ سبحانه بما يقرب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدّس الجبّار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود»[٥].

وهكذا يفسر (العرش) بجلال الكبرياء؛ وإنما اللفظ لتقريب المعنى من أفهام الخلق؛ والأصل أن يُحمل لفظ العرش على الحقيقة كما في القاعدة التفسيرية: «يجب حمل نصوص الوحي على الحقيقة»[٦]، ولا يوجد مبرر لنقلها عن ظاهرها، وخاصة أنّ آثار الصحابة والتابعين تؤيده، ولولا ذلك لبات كتاب الله تعالى لا تُفهم ألفاظه ولا معانيه.

---

(١) «قواعد الترجيح» (١/١١١).

(٢) انظر تأويله للصفات: اللطائف (٣/٢٩١)، (٢/١٩٦)، (٣/٦٥٧).

(٣) اللطائف (٣/٣٠٠).

(٤) جامع البيان (٢١/٣٦٣)، وانظر: تفسير البغوي (٧/١٤٣).

(٥) اللطائف (٢/٧٨).

(٦) انظر: قواعد الترجيح (٢/٤٠).

ونلحظ مما سبق أن القشيري خالف قرينة سياق الآيات ليوافق ما يعتقده من تقريرات الأشاعرة، وفي هذا إقحام للاعتقاد في مفهوم الآيات، وقد خاطب الله جلّت عظمته الناس بلسان عربي مبين بيانًا لمراده سبحانه لا مراد أفهام البشر القاصرة.

الوقفة الرابعة: مخالفته أحيانًا لصريح القرآن:

وهذا من أسوء أنواع التأويل قاطبة؛ لأنّ الفرق الباطنية أباحت لنفسها الكفر لاعتقادها أن باطن القرآن يخالف ظاهره[1]، فجعلوا الباطن حجة لهم ليقرروا ما أثبتوه من زيغ وضلال، وإن كنا لا نعتقد بأن القشيري وصل إلى هذه المرحلة؛ لأنه يفسر الآيات على طريقة السلف ابتداء، ولكنه قد يجنح إلى مخالفة صريح القرآن، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ﴾ [الحج: ٢٦].

يقول القشيري: «﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ يعني: الكعبة، وذلك على لسان العلم، وعلى بيان الإشارة: فرّغ قلبك عن الأشياء كلّها سوى ذكره سبحانه»[2]، وما ذكره على سبيل الإشارة، وإن كان حقًّا، لكنه غير مراد من الآية، ثم يسهب في تفصيل ذلك بقوله:

«ويقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾: أي: قلبك عن التطلع والاختيار بألا يكون لك عند الله حظّ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبدا له بكمال قيامك بحقائق العبودية.

ويقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾: أي: بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلع إكرام، أو تطلّب إنعام، أو إرادة مقام، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال: طهّر قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق».

فبذلك نجده رحمه الله يرتكز على مكنون نفسي صوفي، وهو بذلك يُحمِّل دلالة السياق ما لا تحتمله من معانٍ، وإن كانت حقًّا في ذاتها، والأصل أن يعتمد دلالة السياق بمفهومها العلمي؛ السياق الداخلي والخارجي، ومعرفة حال المتكلم عنه، وفي هذا يقول الطبري: «وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته»[3]،

(١) انظر: الأساس في السنة وفقهها (٤/٢٠٣٥).

(٢) اللطائف (٢/٥٣٨).

(٣) جامع البيان (١/١٥).

فكل عدول عن ظاهر القرآن دون دليل يغير مراد الله تعالى، ويفتح الأبواب مُشرعة أمام تأويلات باطنية باطلة.

وختامًا، جاءت هذه الدراسة لتضع لطائف القشيري رحمه الله في ميزان السياق القرآني، وذلك بالوقوف على بعض الأمثلة السياقية عنده، ومدى موافقتها للسياق بنوعيه المقالي والمقامي، وتكمن أهميته من جهتين: جهة كونه إمامًا، فقيهًا، أصوليًّا، مفسرًا، مُحدّثًا، نحويّا، وجهة موضوعه بما تحويه لطائفه من إشارات رائقة، ولفتات نفيسة.

وتعد الإشارات عامّة مدخلا رائقًا لفهم كتاب الله تعالى، واستخلاص العظات والعبر دون إسهاب ممل أو إجمال مخل، وذلك إن التزمت بمقاصد التنزيل الحكيم، ولم تخرِم قواعد اللغة العربية، ولكِنْ جَعْلُ إشارات البشر وخواطرهم إلهامات ربانية خطأ منهجي صاحب هذا النوع من التفسير قديمًا.

ولا شك بأنّ السياق بدوائره المختلفة (القرآن كله، والسورة، والمقطع والآية) لا يكشف عن معاني القرآن فحسب، بل يكشف عن مدى الانحراف الذي شابه، وما زالت الآراء الشاذة تتوالد يومًا بعد يوم ممّن فسدت سريرتهم بحجة المنهج العلمي، وأحسب أنّ السياق هو أفضل وسيلة لكشف عوار هذه المناهج الضالة.

ولطائف القشيري وإن كان فيها تعليلات لطيفة، وإشارات جليلة، لكنّ فيها مخالفات سياقية منهجية؛ وأحسبُ أنّ النزعة المتصوفة كان لها أثر بيّن في تكريسها ممّا حجبت عنه وضوح الرؤية، وخاصة أنه لم ينزع إلى التفسير قصدًا، إنما هي خوالج نفسية، فيصعب والحالة تلك أن نجد ترجيحًا بيّنًا بدلالة السياق غير ما يمكن لَحْظه؛ ولكِنْ كان حريًّا بإشاراته أن تُلازِم سياق الآيات وما دلّت عليه، فما هي إلا بلاغات عنه سبحانه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى تدل هذه الإشارات -بمنأى من مجموع كتب القشيري- إلى اعتدال نسبي، يعود لطبيعة البيئة العلمية التي نشأ فيها القشيري، فهو فقيه، أصولي، قبل أن يكون متصوفًا، فالقشيري إذا سار على سجيّته العلمية دون عوائق برزت معالم ثقافته العلمية الرصينة، وإن جنح إلى تغليب إملاءاته العقدية، فقد نجده يشطّ عن دلالة السياق، وعليه فإنّ من صنائع البشر أن تبقى بين رادٍّ ومردود عليها، ولطائف الإشارات لا أدّعي

طرحًا له أو قبولا به، لكنّني على يقين بأنّ تنقيته من الشوائب عن طريق اختزاله هو سبيل كل أمّة حيّة، تحترم تراثها، وتتخذه مَدْرجًا إلى معالي المجد.

اللهم ما فيه من حقٍّ فمنك وحدك، وإلا فاغفر منا الخطل والزلل، فأنت المستعان.

الخاتمة

نتائج البحث:

تمخضت الدراسة عن نتائج مهمة، وهي:

١ - لنشأة القشيري أثر بيّن على إشاراته؛ فهو شافعي، أشعري، صوفي الهوى.

٢ - بيان مصادره؛ وهي ما اعتمده أهل المعرفة (المتصوفة) من أقوال ومعان مستنبطة.

٣ - استخلاص منهج القشيري في كتابه اللطائف.

٤ - للسياق أهمية كبرى؛ وخاصة في الكشف عن صحة منهجية المفسَّر.

٥ - شرح القشيري للبسملة بداية كل سورة طريقة لاستجلاب البركة، والاستفتاح بما هو خير، وقد تدل على الموضوع العام للسورة.

٦ - يفعّل القشيري السياق بنوعيه الداخلي والخارجي في تفسير آيات القرآن، وقد يخالفها لميوله المذهبية.

٧ - تبرز معالم ثقافة القشيري العلمية الرصينة إن سار على سجيّته العلمية دون عوائق، وإن جنح إلى تغليب إملاءاته العقدية، فقد يشطّ عن دلالة السياق.

التوصيات:

وتوصي الدراسة بما يلي:

١ - اختصار لطائف الإشارات للاستفادة من محاسن جواهره، وأوابد معانيه.

٢ - تكثيف الدراسات التطبيقية لنظرية السياق على ذوي الاتجاهات المنحرفة.

المراجع

ابن الأنباري، محمد بن القاسم. (١٩٨٧). *الأضداد*. بيروت: المكتبة العصرية.

البغوي، الحسين بن مسعود. (١٩٩٧). *معالم التنزيل في تفسير القرآن* (ط.٤). الرياض: دار طيبة للنشر.

البقاعي، إبراهيم بن عمر. (د.ت). *مصرع التصوف*. مكة المكرمة: عباس أحمد الباز.

البقاعي، إبراهيم بن عمر. (د.ت). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

البيقهي، أحمد بن الحسين. (١٤٠٥هـ). *دلائل النبوة*. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم. (١٤١٦هـ). *مجموع الفتاوى*. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد.

الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن. (١٩٩٢). *دلائل الإعجاز* (ط.٣). القاهرة: مطبعة المدني.

ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد. (١٤١٦هـ). *التسهيل لعلوم التنزيل*. بيروت: دار الأرقم.

الحربي، حسين بن علي. (١٤١٩هـ). *قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية* (ط.٢). السعودية: دار القاسم.

حوّى، سعيد بن محمد. (١٩٩٤). *الأساس في السنة وفقهها، العبادات في الإسلام*. دار السلام للطباعة.

الخطيب، عبدالكريم يونس. (د.ت). *التفسير القرآني للقرآن*. القاهرة: دار الفكر العربي.

ابن خلكان، أحمد بن محمد. (١٩٩٤). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. بيروت: دار صادر.

دراز، محمد عبدالله. (٢٠٠٥). *النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم*. دار القلم للنشر والتوزيع.

الدرة، محمد علي. (٢٠٠٩). *تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه*. دمشق: دار ابن كثير.

الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٨٥). *سير أعلام النبلاء* (ط.٣). بيروت: مؤسسة الرسالة.

الذهبي، محمد السيد. (د.ت). *تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره* (ط. ٢). المدينة النوبية: الجامعة الإسلامية.

الذهبي، محمد السيد. (د.ت). *التفسير والمفسرون*. القاهرة: مكتبة وهبة.

الرومي، فهد بن عبدالرحمن. (١٤٠٧هـ). *اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر*. السعودية: رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد.

الزُّرْقاني، محمد بن عبدالعظيم. (د.ت). *مناهل العرفان في علوم القرآن* (ط. ٣). عيسى البابي الحلبي.

السامرائي، فاضل صالح. (د.ت). *التعبير القرآني* (ط. ٣). دمشق: دار ابن كثير.

السبكي، عبدالوهاب بن تقي الدين. (١٤١٣هـ). *طبقات الشافعية الكبرى* (ط. ٢). هجر للطباعة والتوزيع.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (١٤١٧هـ). *الموافقات*. دار ابن عفان.

الشهراني، سعد بن محمد. (١٤٣٦هـ). *السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة*. الرياض: جامعة الملك سعود.

الصالح، صبحي. (١٩٦٠). *دراسات في فقه اللغة*. دار العلم للملايين.

ابن الصلاح، عثمان بن عبدالرحمن. (١٩٩٢). *طبقات الفقهاء الشافعية*. بيروت: دار البشائر الإسلامية.

الطبري، محمد بن جرير. (د.ت). *جامع البيان في تأويل القرآن*. مكة المكرمة: دار التربية والتراث.

الطيار، مساعد. (١٤٢٧هـ). *مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر* (ط. ٢). الرياض: دار ابن الجوزي.

الطيب إدريس، بلقيس بنت محمد. (١٤٣٢هـ). *بلاغة السياق في خواتيم سورة النحل* [بحث مقدَّم]. الواقع والمأمول، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. (١٩٨٤). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية.

عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٨). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. بيروت: عالم الكتب.

العيسى، خزامي محمد. (١٤٣٦هـ). السياق وأثره في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في القرآن الكريم. *مجلة تبيان للدراسات القرآنية*، (١٨).

ابن فارس، أحمد بن فارس. (١٩٧٩). *معجم مقاييس اللغة*. دار الفكر.

القاسم، عبدالحكيم بن عبدالله. (١٤٣٣هـ). *دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير*. الرياض: دار التدمرية.

القشيري، عبدالكريم بن هوازن. (د.ت). *لطائف الإشارات* (ط.٣). مصر: الهيئة المصرية العامة.

القرطبي، محمد بن أحمد. (١٩٦٤). *الجامع لأحكام القرآن* (ط.٢). القاهرة: دار الكتب المصرية.

قره بلوط، علي الرضا، وقره بلوط، أحمد طوران. (٢٠٠١). *معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»*. قيصري، تركيا: دار العقبة.

القصاص، أسامة بن توفيق. (١٤٠٩هـ). *إثبات علو الله على خلقه والرد على المخالفين*. السعودية: دار الهجرة.

القطان، مناع بن خليل. (١٤٢١هـ). *مباحث في علوم القرآن* (ط.٣). الرياض: مكتبة المعارف.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٤٤٠هـ). *بدائع الفوائد* (ط.٥). الرياض: دار عطاءات العلم.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (١٤٤٠هـ). *التبيان في أيمان القرآن* (ط.٥). الرياض: دار عطاءات العلم.

الماتريدي، محمد بن محمد. (٢٠٠٥). *تفسير الماتريدي*. بيروت: دار الكتب العلمية.

محمود، المثنى عبدالفتاح. (٢٠٠٨). *نظرية السياق القرآني*. الأردن: دار وائل للنشر.

المطيري، عبدالله بن علي. (١٤٢٧هـ). *التيسير في علم التفسير للإمام القشيري من أول الكتاب إلى نهاية سورة البقرة* [رسالة دكتوارة، جامعة أم القرى]. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.

موري، كوياتي محمود. (١٤٣٠هـ). *آراء القشيري الكلامية والصوفية* [رسالة ماجستير، جامعة أم القرى]. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.

ابن نقطة، محمد بن عبدالغني. (١٩٨٨). *التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الواحدي، علي بن أحمد. (١٤١٢هـ). *أسباب النزول* (ط. ٢). الدمام: دار الإصلاح.

JOURNAL OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

A refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

Laṭā'if al-Isharat by Al Qushayri (d. 465 AH) in The light of the Quranic Context Theory: Applied Examples

Dr. Sultan Abdullah Al-Azmi

Ministry of Awqaf and Islamic Affairs

Academic Publication Council

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

ISSN: 1029-8908

Volume 39 - Issue No. 139

Jamada II 1446 A.H. - December 2024